– 5 –

المفتش الأكبر

بدأ إيفان كلامه يقول:

– لا بد من مقدمة. هذا من التقاليد الأدبيّة (قال إيفان ذلك ضاحكاً). ألست مؤلفاً أنا أيضاً؟ إن الأحداث تجري في القرن السادس عشر. ولقد كان رائجاً في ذلك الزمان إدخال القوى السماوية في القصائد، كما لا بد أنك تعلّمت ذلك في المدرسة. يكفي أن أذكّرك، حتى دون أن استشهد بمثال دانتي، بأن موظفي المحاكم والرهبان في الأديرة في فرنسا كانوا يقدمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون، ويظهر فيها المسيح، ويظهر فيها حتى الله نفسه. تمثيليات ساذجة وقد وصف فكتور هوجو في روايته «Notre Dame de Paris»[27] تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب في قاعة دار البلدية في عهد لويس الحادي عشر احتفالاً بميلاد ابنه البكر[28]، وكان عنوان التمثيلية هو الحكم الصائب للعذراء مريم المقدّسة النعمة»[29]، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لإصدار الحكم السديد. وعندنا في موسكو[30]، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت تمثيليات من هذا النوع تُمثّل من حين إلى حين، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة. وعدا هذه التمثيليات، فقد انتشرت في العالم طائفة من الأقاصيص أو «القصائد» يظهر فيها القديسون

وتظهر فيها الملائكة والقوى السماوية كلها، تبعاً للحاجات. وفي أديرتنا كانت تُترجم وكانت تنسخ أشياء كثيرة، بل لقد كانت تُؤلف قصائد في بعض الأحيان، حتى في عهد الاحتلال التتري. فكذلك على سبيل المثال، أحتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعاً) عنوانها: «درب الآلام للعذراء»، مليئة بلوحات تكاد تبلغ في جرأتها وجسارتها لوحات دانتي. ففي تلك القصائد تذهب العذراء إلى المعذبين في الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل، فترى الخطأة وترى ما يقاسون من عذاب أليم، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطأة تتخبط في بحيرة مشتعلة، فالذين يغوصون في هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك إلى سطحها قط، ويقال عنهم «إن الله قد نسيهم»، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة، وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية، فسقطت باكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبي الجحيم، وأن يغفر لهم جميعاً بغير تمييز. إن حديثها مع الرب شائق جداً، فهي تتضرع إليه وتلحّ وتأبى أن تنصرف، فإذا أومأ الرب إلى قدمي ويدي ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها: «كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين»، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخَطَأة بغير استثناء. واستطاعت أخيراً أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كلّ سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين، وأن يسارع المعذبون عندئذ إلى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل: «أنت على حق يا رب، وعادل حكمك». إن قصيدتي أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أنني عشت في ذلك العصر. إن الرب يظهر في قصتي، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح، لقد انقضى خمسة عشر

قرناً منذ أن وعد بأن يعود إلى مملكته، منذ أن كتب رسوله: «سأعود قريباً»[31] «أما اليوم والساعة فإن الابن نفسه لا يعرفهما، وإنما يعرفهما أبي الذي في السموات»، على حد الأقوال التي نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالأرض. ولكن الإنسانية ما تزال تنتظره بإيمان واحد وحماسة لم تتغير، بل إن الإيمان قد قوي واشتد، لأن خمسة عشر قرناً قد انقضت منذ أن كفت السماوات عن بذل رهائن للبشر.

صدق صوت قلبك أيها الإنسان
إن السموات لا تبذل ضمانات[32].

فلا إيمان إلا بما يقوله القلب! صحيح أن المعجزات كانت كثيرة في ذلك العصر. فلقد كان هنالك قديسون يبرئون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة، وإذا صدق ما يروى في سِيَر بعض الصالحين، فإن ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها. ولكن الشيطان لم ينم، وأخذت الإنسانية تشك في صدق هذه المعجزات. وظهرت عندئذ هرطقة جديدة رهيبة في شمال ألمانيا[33] فإذا بكوكب كبير «شبيه بشعلة» (هو الكنيسة طبعاً) «يسقط على نبع المياه فتصبح المياة مرة». لقد كان أولئك المجذِّفون الهراطقة ينكرون المعجزات. فازداد إيمان المؤمنين، واشتدت حماستهم. وأخذت الإنسانية ترفع أعينها الدامعة إلى الرب منتظرة مجيئه، محبة إياه بقلب حار، مؤمّلة فيه، ظامئة إلى التألم من أجله والموت في سبيله، كما حدث في الماضي... إن صلوات البشر ترتفع إلى السموات حارة منذ قرون طويلة قائلة له: «تفضّل بالمجيء إلينا يا رب»، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة، أن يعود إلى أولئك الذين يضرعون إليه هذه الضراعة. لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تُروى

سيرة حياتهم. وفي بلادنا روسيا تغنّى الشاعر تيوتشيف به في هذه الأبيات (وكان يؤمن إيماناً عميقاً بما يقول):

أيتها الأرض التي ولد فيها ملك السموات[34]
لقد طاف في كل جهة من جهاتك في صورة عبد،
منحنياً تحت ثقل صليبه،
يهب لك بركته الواسعة.

ذلك كله صحيح، أؤكد لك. لقد قرر الرب أن يظهر، في هذه المرة لا لأفراد من القديسين، بل للشعب بأسره، لجمهرة الناس المغمورين الذين يتألمون في خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلوب ساذجة كقلوب الأطفال. أحداث قصيدتي تجري في إسبانيا، بمدينة إشبيلية، في أحلك عهود «التفتيش»، حين كانت أكوام الحطب تشتعل لإحراق المتهمين كل يوم في جميع أرجاء إسبانيا تمجيداً للرب:

في نيران رائعة[35]
كان يحرق الزنادقة الأشرار.

لم يكن يقصد في هذه المرة أن يرجع إلى الأرض ذلك الرجوع الذي سيكون، حسب وعده في الكتب الدينية، في آخر الدهور، فيتجلى فجأة بكل مجده السماوي «كبرق يسطع من الشرق إلى الغرب»[36]. فكل ما كان يريده هو أن يقضي بضع لحظات عابرة بين أبنائه في تلك الأماكن نفسها التي تزفر فيها النيران الموقدة لإحراق الهراطقة. لقد أراد بدافع من رحمته اللانهائية أن يظهر مرة أخرى بين الناس في الصورة الإنسانية التي اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرناً خلال حياته الأرضية التي دامت ثلاثة وثلاثين عاماً. فهكذا نزل إلى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية التي تم فيها أمس، بأمر

الكاردينال، المفتش الأكبر، إحراقُ حوالى مائة من الزنادقة، تمجيداً لله، بمعاونة الأهالي[37] وبحضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات والجماهير الغفيرة من أبناء المجتمع وأهالي إشبيلية. وقد ظهر الرب خفية بدون ضوضاء، ولكن الأمر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه. وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة: لماذا عرفه الناس جميعاً؟ لقد انجذب إليه الجمهور بقوة لا تقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية له. إن شمس المحبة تتقد في قلبه، ومن عينيه تشعّ أشعة الضياء والتنوير والقوة فتنتشر في المؤمنين وتشعل المحبة فيهم، وهو يمدّ ذراعيه نحو الشعب ليباركه. إن ملامسته، وحتى ملامسة ثيابه، تملك القدرة على إبراء المرضى. فهذا شيخ من الجمهور، أعمى منذ طفولته، يهتف قائلاً على حين فجأة: «ردّ إليّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك» فما هي إلا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو يرى الرب. وبكى الشعب تأثراً، وأغرق بالقبلات الأرض التي مشى عليها. وأخذ الاطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين: «المجد لله» وتعالت الصيحات من كل جانب تقول في حماسة: «إنه هو، إنه هو، لا يمكن إلا أن يكون إياه». ووقف في الساحة أمام كاتدرائية إشبيلية لحظة كان يؤتى إلى المعبد، بين عبرات الحضور، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان بنية في السابعة من عمرها هي البنت الوحيدة لرجل من عيون سكان المدينة. ان الطفلة الميتة مغطاة بالأزهار. صاح الجمهور يقول للأم المحزونة: «سيحيي لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قد تقدم نحو التابوت، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه. فأجهشت أم البنيّة الميتة باكية وارتمت على قدمي

المسيح وضرعت إليه وهي تمد نحوه ذراعيها قائلة: «إذا كنت أنت هو حقاً، فأحيي ابنتي!» توقف الموكب، ووضع التابوت على البلاطات عند قدميه. فألقى على جثمان البنت نظرة تفيض بالعطف، وتحركت شفتاه في رفق تقولان مرة أخرى» «قومي أيتها البنية»[38] فما أن نطق بهذه الكلمات حتى انتصبت الطفلة في التابوت، وجلست مبتسمة، ونظرت حولها بعنين محملقتين مدهوشتين. إنها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها. اضطرب الجمهور وصاح وبكى. وفي تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال المفتش الأكبر في الساحة أمام الكاتدرائية. إنه شيخ في نحو السنة التسعين من عمره، طويل الجسم، منتصب القامة، معروق الوجه، غائر العينين، غير أن في عينيه شعلة تسطع. إنه لا يرتدي الآن ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذي ظهر به للشعب في الليلة البارحة حين كان يُرمى إلى النيران أعداء الكنيسة الرومانية. وإنما هو يلبس في هذه اللحظة ثوب الراهب، المصنوع من خشن الصوف. وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وعبيده وحرس «القداسة». وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد. لقد رأى كل شيء، رأى التابوت عند قدمي المسيح، ورأى البنية تُبعث حية، فأظلم وجهه واكفهر. إنه يقطّب حاجبيه الكثيفين الأبيضين، وإن بريقاً متوحشاً كاسراً يومض في عينيه. وها هوذا هو يشير إلى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه. إن هذا الرجل الذي عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع إراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الحرس، فإذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذي خيّم على حين فجأة، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه. وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الأكبر

الذي بارك الجمهور صامتاً وانصرف. أُخذ السجين إلى المبنى العتيق الذي تقع فيه المحكمة المقدسة، وحُبس في زنزانة مظلمة ضيقة مقبّبة. انقضى النهار، وهبط الليل. هي ليلة من ليالي إشبيلية تلك الحالكة الخانقة الحارة. «الهواء معطر بعبق أشجار الرّند والليمون[39]». وفجأة، في الظلمات، فُتح باب الزنزانة الحديدي، وتقدم المفتش الأكبر العجوز يسير في الممر ببطء حاملاً بيده مصباحاً. هو وحده، وما إن يدلف حتى يُغلق الباب خلفه فوراً. وقف لحظة على عتبة الزنزانة وتفرس في وجه السجين طويلاً. ثم اقترب منه آخر الأمر بخطى خافتة، ووضع المصباح على المنضدة وقال له: «أهذا أنت إذن؟ أهذا أنت؟»

– ولكنه حين لم يتلقَّ جواباً أسرع يضيف: - اسكت! لا تقل شيئاً! وما عساك تقول لي؟ إنني أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لي. وبأي حق تريد أن تضيف أي شيء إلى ما سبق أن قلته؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب في حياتنا؟ ذلك أنك إنما جئت لتعرقل عملنا، وأنت لا تجهل ذلك. فهل تعلم مع هذا ما الذي سيقع غداً؟ إنني لا أعرفك. ولا أريد أن أعرفك. أأنت هو حقاً، أم لست إلا طيفه؟ سيان... لأنني سأحكم عليك بالإعدام وسآمر بإحراقك مثلما آمر بإحراق أسوأ الزنادقة. إن ذلك الجمهور نفسه الذي كان يقبّل قدميك منذ بضع ساعات، سيهرع غداً، بإشارة بسيطة مني، فيرى لهيب النار، هل تعلم ذلك؟ - ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول سارد الفكر، نافذ النظرة، متأمّلاً دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة: - لا شك أنك تعلم ذلك».

قال أليوشا الذي كان إلى ذلك الحين يصغي إلى أخيه صامتاً، قال وهو يبتسم:

- لست أفهم جيداً يا إيفان. أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك الذي لا يعرف الحدود، أم تريد أن تقول إنها خطأ من أخطاء الشيخ وقد خدعه ظنه، وأن لبسة ما قد أظلّته؟

قال إيفان ضاحكاً:

- لنسلّم بأن افتراضك الأخير صحيح، وبأن هناك لُبسة ما دامت واقعية هذا العصر قد دمغتك أنت أيضاً إلى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية. لنفرض أن هناك لبسة ما، إذا كنت تحرص على ذلك.

ثم أردف إيفان يقول وهو يضحك مرة أخرى:

- يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو في التسعين من عمره، وأن من الجائز أن يكون قد جنّ منذ زمن طويل في عزلته المستعلية. ولعل منظر السجين قد أدهشه. ولعل هذا كله لم يكن أيضاً إلا هذيان رجل عجوز قد أهاجه إحراق المائة زنديق الذين أحرقوا في الليلة البارحة، أو هلوسة من تلك الهلوسات التي تسبق الموت في بعض الأحيان. وإنه ليستوي على كل حال أن يكون الأمر أمر تهاويل خيالية أو أمر qui pro quo[40] (لُبسة)، المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة، وهو في التسعين من العمر، سيقول ما في قلبه وما فكّر فيه صامتاً طوال حياته.

- والسجين؟ أهو صامت؟ أهو ينظر إلى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة؟

قال إيفان شارحاً وهو مازال يضحك:

- على هذا النحو إنما يجب أن تجري الأمور. ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئاً إلى ما سبق أن قاله في الماضي؟ بل إن هذا في رأيي سمة من السمات الأساسية للكاثوليكية

الرومانية: «لقد عهدت برسالتك إلى البابا، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن. فلا تأت إلينا لتعرقل عملنا، وتبث القلق والإضطراب في حياتنا بغير طائل، لا تأت الآن لا تأت قبل الساعة المحدّدة على كل حال». فهذا ما لا يقوله فحسب، بل يكتبه صانعو الكنيسة الرومانية، أو هذا ما يقوله ويكتبه اليسوعيون على الأقل. لقد قرأت هذا بنفسي في كتب لاهوتييهم. إن العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال: «هل من حقّك أن تكشف لنا ولو عن سر واحد من أسرار العالم الذي جئت منه؟»

- ثم لم ينتظر جوابه، بل أضاف يقول فوراً:

- لا... ليس من حقك أن تفعل هذا... ولا حتى أن تضيف شيئاً إلى ما سبق أن قلت في الماضي، وذلك حتى تحرم البشر من تلك الحرية التي كنت تقدرها قدراً عظيماً حين عشت على الأرض. إن كل قول جديد قد تأتي به سيسيء إلى حرية الإيمان، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات، وقد كانت حرية إيمانهم أعز شيء لديك آنذاك منذ خمسة عشر قرناً. ألم تكن تردد على مسامعهم مراراً: «أريد أن أجعلكم أحراراً»؟ وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكّرة على حين فجأة: - ولقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر «الأحرار»... إن هذه الحرية هي من صنعنا، وقد كلّفتنا جهوداً لا نهاية لها - كذلك أضاف العجوز وهي يلقي على السجين نظرة قاسية - ولكننا أتممنا عملنا أخيراً باسمك. لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحرية، ولكن الأمر انتهى الآن، انتهى تماماً. ألا تظن أنه انتهى إلى الأبد؟ إنك تنظر إليّ بوداعة ولين ورفق، فلا شك أنك تقدّر أنك إن أظهرت استياءك كنت تشرفني تشريفاً لا أستحقه! ألا فاعلم إذاً أن البشر هم في هذا اليوم

بعينه أشدّ اقتناعاً منهم في أي وقت مضى بحريتهم الكاملة، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بكثير من الطاعة. ذلك هو عملنا. أهذه هي الحرية التي كنت تنشدها لهم؟»

قاطعة أليوشا مرة أخرة قائلاً:

– مرة أخرى أصبحت لا أفهم. أهو يسخر؟ أهو يتهكم؟

– كلا... إنه لا يسخر ولا يتهكم أبداً: إنه يتباهى، لنفسه ولصحبه، بأنهم أوقفوا نموّ الحرية، وأنهم فعلوا ذلك من أجل أن يجعلوا الناس بذلك سعداء. «ذلك أننا الآن، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للإنسانية بالسعادة (إنه يتكلم طبعاً باسم محاكم التفتيش). إن الإنسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد. ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء؟ لقد نُبهت إلى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها، ونبذت الطريق الوحيدة التي كان يمكن أن تقود البشر إلى السعادة. ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الأرض عهدت إلينا بمهمة إتمام رسالتك. لقد كلّفتنا بأن نوجّه الإنسانيّة وأن نرشدها بذلت لنا وعدك، وأقمت سلطتنا على كلمتك، ووهبت لنا حق العقد والحل، ولن تستطيع طبعاً أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن. فلماذا جئت تعرقل عملنا في هذا العالم؟».

قال أليوشا سائلاً:

– ماذا كان يعني بقوله إن النصائح والتحذيرات لم تعوزه؟

وأجاب إيفان:

– ذلك هو العنصر الأساسي في التفكير الذي كان العجوز يريد أن يعرب عنه.

تابع العجوز يقول: «إن الروح الرهيب الذكي، روح الدمار

والعدم، قد خاطبك في الصحراء[41]، وتروي الكتب المقدسة أنه «كان يغويك» أليس كذلك؟ هل نستطيع في الواقع أن نتخيل حقائق أكبر من الحقائق التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ، والكتب المقدسة تصفها بأنها «غوايات». ومع ذلك، لئن وُجدت على هذه الأرض في يوم من الأيام معجزة كبرى، معجزة صادقة، فإن تلك المعجزة إنما تحققت في ذلك اليوم بعينه، في يوم تلك الغوايات الثلاث. لقد كانت تلك الأسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت. لنتصور، على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها إلى النصوص المقدسة. لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الأرض - رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء - وقلنا لهم: أوجدوا لنا، تخيلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تلخص بالإضافة إلى ذلك، في ثلاث جمل إنسانية بسيطة، كل مستقبل العالم والإنسانية، فهل تظن أن كل حكمة الأرض المجتمعة في هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ولو من بعيد شيئاً يشبه بقوته وعمقه، تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي الذكي؟ إن تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة، أعني كون الأسئلة قد أُلقيت، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل إنساني عادي، بل أمر فكر خالد مطلق. ذلك أنها تضم في ذاتها، تشتمل في ذاتها على كل التاريخ المقبل للإنسانية، وتقدم رموزاً ثلاثة تتركز فيها جميع تناقضات الطبيعة الإنسانية، التي لا سبيل إلى حلها. إن تلك الحقائق لم تكن ظاهرة

آنئذ ظهوراً واضحاً، لأن التطور الذي تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفاً، أما الآن، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً، فإننا نرى أن كل ما تضمنته في تلك الأسئلة الثلاثة قد تحقق تحقّقاً يبلغ من الكمال والتمام درجة أننا لا نستطيع معها أن نضيف أو أن نحذف شيئاً بعد اليوم.

فاحكم في الأمر بنفسك: من ذا الذي كان على حق، أأنت أم سائلك؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة، لا نصّه بل معناه العام: «تريد أن تمضي إلى الناس، وأنت تمضي إليهم خالي اليدين إلا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن يفهموه، عدا أنهم بالإضافة إلى ذلك يخشونه ويخافون منه، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك في يوم من الأيام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحرية. هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة المحرقة؟ حوّلها إلى خبز تهرع إليك الإنسانية كقطيع جائع، وتصبح شاكرة لك مطيعة إياك، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من أن تسحب يدك وأن تُحرم هي من خبزك». غير أنك لم تشأ أن تحرم الإنسان من الحرية، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقد أجبت بقولك: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. أفكنت تجهل إذاً أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه، وأنه سيقاتلك ويغلبك؟ وأن الجميع سيتبعونه قائلين: «من ذا الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذي وهب لنا نار السماء؟» لسوف تنقضي قرون، فيأتي يوم تنادي فيه الحكمة الإنسانية وينادي فيه العلم الإنساني بأن الشر لا وجود له، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!»

بهذه الصيحة إنما سيحملون الراية ضدّك وسيقوّضون معبدك. وسيقيمون في مكانه مبنى آخر، هو «برج بابل» ثانٍ مهدّد. صحيح أن البناء لن يتم، كما لم يتم في المرة الأولى، ولكن كان في وسعك مع ذلك أن توفر على الإنسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة. ذلك أن البشر إنما سيتجهون إلينا نحن بعد أن يجهدوا في بناء برجهم مدة ألف سنة! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي نكون قد لجأنا إليها (لأننا سنُضطهد وسنعذّب من جديد)، سيجيئون قائلين لنا: «أطعمونا، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا». وسننهي عندئذ بناء البرج، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى النهاية. وسوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا، وسوف نطعمهم باسمك، كاذبين عليهم بأننا نفعل ذلك باسمك، ونستمد قوتنا منك. بدوننا لن يستطيعوا أن يطعموا أنفسهم أبداً! لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحراراً، ولكنهم سينتهون إلى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين: «استعبدونا ولكن أطعمونا». سيدركون هم أنفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الأرض، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته، لأنهم لن يتوصلوا إلى اقتسامه بالعدل في يوم من الأيام. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحراراً، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون إلى التمرد والعصيان. لقد وعدتهم بخبز السماء، ولكنني أسألك مرة أخرى: هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر هؤلاء البشر الذين سيظلون إلى الأبد فاسدين عاقّين؟ إذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدة لأن تتبعك في سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تحس بأنها قادرة على أن

تتنازل عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء؟ أتراك لا تعطف إلا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية، وهل يجب على ملايين البشر، هل يجب على الجموع التي لا نهاية لعددها، كرمل البحر، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضاً، أن لا يكونوا إلا مادة للكبار والأقوياء؟ إننا نحن نرى غير هذا الرأي، وإن الضعاف هم أيضاً أعزة على قلوبنا، إنهم شريرون عصاة، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون في آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعاً. سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء الحرية وأن نسيطر عليهم، فإلى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة في نظرهم بتقدم الزمن! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم هكذا يطيعونك أنت وبأننا نحكمهم باسمك. سوف نكذب عليهم في هذه النقطة أيضاً، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل في شؤوننا. وسيكون هذا الكذب الضروري عذابنا. ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول في الصحراء، وقد رفضت نداء الروح الجبّار باسم الحرية التي وضعتها في أعلى منزلة، وفضلتها على كل شيء. ولقد كان ذلك السؤال يخفي مع ذلك كل سرّ العالم. فلو قد رضيت أن تعطي الخبز، إذاً للبّيت ما تنتظره الإنسانية انتظاراً منذ عهود سحيقة، ولهدّأت القلق الذي يعذّب الفرد ويعذّب الجماعة كليهما: «من نطيع؟» فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى لدى الإنسان الذي أصبح حراً من همّ العثور على سيد يعبده بأقصى سرعة. ولكن الإنسان يتطلع إلى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى إجماعي. إن حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست إلى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد، وإنما إلى

اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع، ويمكن أن ينحني لها الناس كافة. فهذه الحاجة إلى الاشتراك في العبادة هي بعينها الهمّ الرئيسي الذي يعذّب كل فرد ويعذب الإنسانية جملة، منذ أقدم عهود التاريخ. فباسم هذا التطلع إلى العبادة الجماعية المشتركة إنما أفنت الشعوب بعضها بعضاً خلال الأحقاب. كانت الشعوب تصنع آلهة ثم تأخذ تتشاتم: «اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا. وإلا فالموت لكم ولآلهتكم!» وسيبقى الحال على هذا المنوال إلى نهاية العالم، وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لأصنام جديدة. ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسي من أسرار الطبيعة الإنسانية، فليس يمكن أن تجهل هذا السر، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوة جذب مطلق والتي قدّمت لك لتؤدي بجميع البشر إلى الانحناء أمامك بغير تردد - أعني راية الخبز الأرضي- لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم الخبز السماوي. فانظر إذاً فيما صنعت بعد ذلك! انظر فيما فعلت باسم الحرية! أعود فأقول لك إنه لا قلق أرسخ في قلب الإنسان من قلق الحاجة إلى العثور على من يستطيع أن يضحّي له سريعاً بالحرية التي وُهبت له، هو المخلوق التعيس منذ ولد. ولكن لا سبيل إلى التصرف في حرية البشر إلا بتهدئة ضميرهم. ولقد كان في وسعك أن تتخذ الخبز راية لا تخطئ. أطعم الإنسان يُطعمك، فليس هناك في هذا العلم ما هو أعزّ على الجحود أكثر من الخبز. ولكن إذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذي يكون قد أغوى نفوسهم وأخضعها. في ذلك كان رأيك صحيحاً. إن سرّ الوجود الإنساني ومبرره ليس في إرادة الحياة، بل في الحاجة إلى معرفة السبب الذي يدعو الإنسان إلى الحياة. فالإنسان ما لم يكن

على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يوجد في العالم بل يؤثر أن يدمّر نفسه، ولو ملك الخبز وافراً كل الوفرة. تلك هي الطبيعة الإنسانية. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الإنسانية أردت لها مزيداً من النمو! فهل نسيت إذاً أن الإنسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار في معرفة الخير والشر؟ لاشيء يخلب اللب للوهلة الأولى أكثر من حرية الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يعذب الإنسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية. فبدلاً من أن تحمل للإنسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية لتهدئة ضميرها، وبدلاً من أن توفّر لها هذه الأسس إلى الأبد، عرضت عليها ما في هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الإنسانية، وكنت في عملك هذا كأنك لا تحب البشر اطلاقاً، أنت الذي إنما جئت مع ذلك لتضحي من أجلهم بالحياة! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الإنسانية وسّعتها، وبذلك أثقلت، بآلامها على ملكوت الإنسان النفسي. أردت من البشر أن يمنحوك حبهم أحراراً، وأن يتبعوك بإرادتهم، مفتونين بشخصك. ألغيت القانون القديم الذي كان وطيداً راسخاً، فأصبح على الإنسان أن يميّز الخير والشر نفسه، مستلهماً حكم قلبه، غير مسترشد في تردده إلا بصورتك أمام عينيه. أفلم تتنبأ إذاً بأن البشر سينوؤون بهذا الرهيب، حمل حرية الإرادة، فإذا هم آخر الأمر ينبذون في يوم من الأيام صورتك ويشكون في حقيقتك وتعاليمك؟ لسوف ينادون في النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك، فمن المستحيل إلقاؤهم إلى اضطراب أشد وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب الذين ألقيتهم إليهما حين تركت لهم كل هذه الأنواع من القلق، وكل هذا العدد من المشكلات التي لا سبيل إلى حلّها. لقد زوّدتهم أنت

نفسك الأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها. فهل هذا ما عُرض عليك مع ذلك؟ ليس على الأرض إلا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب إلى الأبد على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف، وأن تفعل ذلك من أجل سعادتهم، وهذه القوى هي: المعجزة، والسر، والهيبة. ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعاً وعلّمت البشر بقدوتك أن يحتقروها. فحين نقلك الروح الرهيب الداهية إبليس إلى سطح المعبد وقال لك: «إذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فالق بنفسك في الفضاء، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك»(42)، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك في الفضاء. صحيح أنك تصرفت في تلك اللحظة تصرفاً فيه ما في تصرف الله من عظمة وجلال، ولكن هل تتصور أن البشر، وهم جنس ضعيف متمرد، يملكون من القوة الروحية ما يملكه إله؟ لقد فهمت في تلك اللحظة أنه بخطوة واحدة، بمجرد حركة بسيطة هي أن تهم بإلقاء نفسك في الفضاء كانت ستعني إغراء الرب، فلو قمت بها لكنت، بطلب المعجزة، تبرهن على قلّة إيمانك، فإذا حُرمت من الإيمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التي جئت لتخلصها وتنقذها، ويهلل الروح المحتال الذي كان يغريك جذلاً وطرباً. ولكنني أعود فأسألك: هل أمثالك كثير في هذا العالم؟ هل وقع في وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضاً فوق إغراء من هذا النوع؟ هل في طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب الحرّ وحده في الساعات العصيبة من الحياة، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التي تعرض للنفس؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولي سيحفظ بالكتب المقدسة

إلى آخر العصور وأبعد حدود الأرض، وكنت تأمل أن يقتدي البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات. ولكنك لم تقدّر أن الإنسان متى جحد أسرع بجحد الرب، لأن ظمأه هو إلى العجائب لا إلى الرب، وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات، سيخلق بنفسه معجزات، فيهوي، ولو كان متمرداً وكافراً وملحداً، إلى خرافات سخيفة وتنطلي عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم. إنك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور إلى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء: «انزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت». إنك لم تنزل، لأنك مرة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة، وإنما أردت أن يجيئوا إليك بتأثير الإيمان الحر لا بتأثير الإيمان الذي تلده العجائب. كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحراراً لا أن ينصاعوا لك عبيداً أذهلهم جبروتك. هنا أيضاً أسرفت في تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم، ذلك أن البشر عبيد، رغم أنهم مفطورون على التمرد. انظر فيما حولك: ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرناً؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم إلى مستواك؟ أحلف لك أن الإنسان أضعف وأسوأ مما ظننت؟ هل يستطيع هو الوضيع أن يحقق ما حققته أنت؟ إنك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه، لأنك سألته فوق ما يطيق، أنت الذي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنك قدّرته أقل مما قدّرته إذاً لطلبت منه أقل مما طلبت، ولكان موقفك عندئذ أقرب إلى المحبة، لأن العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً. إن الإنسان ضعيف وضيع. لا يهمني أن يكون الآن قد ثار في كل مكان على سلطتنا، وأنه يرى في عصيانه هذا مجداً يعتز به. ذلك غرور طفل، ذلك غرور تلميذ. إن البشر يشبهون تلامذة صغاراً

ثاروا في المدرسة وطردوا معلمهم. ولكن فرحتهم لن تدوم، وستكلفهم ثمناً باهظاً. سوف يهدمون المعابد، وسوف يجري الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدركون عندئذ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء، أنهم إن خُلقوا عصاة متمردين، فليس يتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً في التمرد والعصيان، وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذي وهب لهم روح العصاة قد غرر بهم وسخر منهم. سيقولون هذا محزونين مكروبين، سيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضاً، لأن الطبيعة الإنسانية لا تحتمل التجذيف، ولا بد أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر. القلق، الاضطراب، العذاب، ذلك هو المصير الذي كتب على البشر الآن، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته في الماضي من أجل أن تهب لهم الحرية! إن رسولك الكبير[43] روى أنه أبصر، في رؤيا، جميع المشركين في البعث الأول، فرأى اثنى عشر ألفاً من كل سبط. لقد كانوا، مهما يكثر عددهم، أقرب إلى آلهة منهم إلى بشر. قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين في الصحراء القاحلة، وأضناهم الجوع، واقتاتوا بالجراد والجذور. صحيح أن في وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحراراً، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا في سبيلك بأنفسهم في سورة رائعة. ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا إلا بضعة آلاف، أنهم أشبه بآلهة منهم ببشر. والآخرون؟ ما ذنب الآخرين إذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لا تعرف كيف تسمو إلى فضائل مخيفة إلى هذا الحد؟ أتراك جئت إلى هذه الصفوة ومن أجل هذه الصفوة وحدها؟ أأنت لا تفكّر إلا فيها ولا يخطر ببالك ما عداها؟ إذا كان الأمر كذلك فهو سرّ يفوق ما

نملك من قدرة على الفهم، ومن حقنا في هذه الحالة نحن أيضاً أن نلجأ إلى السر، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الاساسي ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً، وإنما هو السر الذي لا سبيل إلى معرفته والذي يجب عليهم أن يخضعوا له خضوعاً أعمى ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. وهذا بعينه هو ما فعلناه. أصلحنا خطأك الذي ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولي عن المعجزة، فبنينا عملك على ما هو فوق الطبيعة بنيناه مأثرتك، فبنيناها على المعجزة، والسر، والهيبة. وابتهج الناس إذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشؤومة التي وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها.
قل: هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحب الإنسانية حباً كافياً، بينما نحن اعترفنا بوهنها في كثير من الإذعان والتسليم، وخففنا عنها الحمل في كثير من المحبة والالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعف طبيعتها، شريطة أن تستأذننا في ذلك كل مرة؟ فلماذا تجيء الآن لتعرقل عملنا؟ مالك تحدّق إليّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النفاذتين؟ أحرى بك أن تغضب. إنني لا أريد محبتك، لأنني أنا نفسي لا أحبك. ولست أحاول أن أخفي عنك ذلك لأني أعلم من ذا الذي أخاطب، أليس كذلك؟ ثم إنك تعرف كل ما قد أقوله لك، أقرأ ذلك في عينيك. ففيم المواربة والحالة هذه؟ إن سرنا لن يخفى عنك فلعل ما تريده إذاً هو أن تسمع هذا السر من فمي؟ ليكن لك ما تريد ألا فاعلم أننا لسنا معك، بل معه هو. ذلك هو سرنا! إننا منذ زمن طويل قد كففنا عن أن نكون معك، وتحيّزنا له هو. فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته

أنت مستاء، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشير لك إلى ممالك الأرض[44]: لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وسيف القيصر، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين، رغم أننا لم ننجز إلى الآن عملنا. ولكن من المذنب في هذا؟ إن هذا المشروع ما يزال في أوله، ولكنه بُدئ. ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به إلى غايته، ولا بد من آلام كبيرة في هذه الحياة الدنيا، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون. وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر في سعادة شاملة تنعم بها الإنسانية. لقد كان في وسعك أن تقبل سيف القيصر حتى آنذاك، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصيّة الثالثة التي نصحك بها الروح القوي، إذاً لكان في وسعك ان تحقق كل ما يتمناه الإنسان، وهو أن يعرف: من يطيع، والى من يعهد بقيادة ضميره، وبأي وسيلة يوحّد جميع البشر في مجتمع كمجتمع النمل، واحد كبير منظم. ذلك أن الحاجة إلى الوحدة الشاملة هو ثالث عذابات النفس الإنسانية وآخرها. إن الإنسانية قد حاولت في جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل. إن هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكن شقاءها كان كبيراً على مقدار نبلها، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة إلى التوحيد الشامل للبشر. إن الغزاة الكبار، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان، الذي مروا على الأرض مرور إعصار مخرب وعاصفة مدمرة، كانوا يتوقون إلى أن يصبحوا سادة العالم بأسره، ولكن شوقاً عميقاً واحداً إلى توحيد جميع الشعوب كان يحرّكهم دون أن يشعروا بذلك. فلو أنك قبلت دنيا القياصرة ومقامهم، لكان في وسعك أن تبني المملكة الشاملة وأن تكفل السلام الشامل للإنسانية إلى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر

إن لم يقع على أولئك الذين يحكمون ضمائر البشر والذين يملكون خبزهم؟ لقد أخذنا سيف القيصر إذاً، وإذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه هو. ستنقضي قرون طويلة من عربدة العقل البشري الحر والعلم البشري وأكل لحوم البشر، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا في بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً إلى أكل لحوم البشر. ولكن «الوحش» سيجيء بعد ذلك إلينا زاحفاً، وسيلعق أرجلنا التي سيبلّلها بدموعه الدامية. وسوف نركبه، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة: «السر!» ويومئذ إنما سيحل ملكوت السلام والسعادة للإنسانية. إنك فخور بصفوتك المختارة، ولكن الصفوة وحدها معك، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة إلى جميع النفوس. وحتى بين أبناء هذه الصفوة المختارة، حتى بين هؤلاء الأقوياء، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون إلى خدمتك، فانتظروك عبثاً، ثم سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أخرى، وانتهى بهم الأمر إلى رفع راية حريتهم عليك! ألست أنت الذي أعطيتهم راية الحرية هذه؟ أما نحن الذين نهشّ على البشر بعصانا، فإن البشر سيكونون سعداء معنا، وسيعزفون عن التمرد علينا. ولن يبيد بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن في كل مكان بفضل الحرية التي تركتها لهم. وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً إلا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم لصالحنا وخضعوا لنا. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب؟ إنهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة، لأنهم سيتذكرون أهوال العبودية والآلام التي قادتهم اليها حريتك. إن الحرية والعقل المتحرر، والعلم، إن كل ذلك سيؤدي بهم إلى غياهب وأدغال وسيضعهم أمام اضطراب وألغاز لا سبيل إلى حلها،

زاخرة بالمعجزات المحيّرة. وأما العصاة العنيفين منهم فسيدمّرون أنفسهم بأنفسهم، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً. أما الباقون، بجمهرة الكبرى من الضعاف والأشقياء فإنهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا: «أنتم على حق. إننا نعترف بهذا الآن، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره. نحن نعود اليكم. انقذونا من أنفسنا!» وحين سيتلقون الخبز من أيدينا، سيرون حق الرؤية أنهم هم الذين أنتجوه بعملهم، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة. سيفهمون أننا لم نقلب حجارة إلى خبز، ولكنهم سيغتبطون بأنه أطعموا، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم أطعموا على أيدينا: لن ينسوا قط أن الخبز الذي صنعوه كان، بدوننا، يتحول في أيديهم إلى حجارة، حتى إذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزاً لهم. سيعرفون كيف يقدّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائي! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم إلا شقاء، ما ظلوا لا يفهمون ذلك. فمن ذا الذي ساهم أكثر من غيره في قلة الفهم تلك؟ من الذي خرّب تلاحم القطيع وبعثره في طرق مجهولة؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد، وسيعود إلى طواعيته، إلى الأبد في هذه المرة. وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة سعادة متواضعة وادعة هي السعادة الوحيدة التي تناسبهم. سنعلمهم أخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم بذلك متكبرين. سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم، وأنهم أطفال يرثى لحالهم، ولكن سعادة الاطفال هذه هي أعذب سعادة. سوف يصبحون خجولين، وسوف ينظرون إلينا نظرتهم إلى حماة يحمونهم، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها. سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا، فخورين بأن لهم سادة يبلغون هذا المبلغ من القوة

والذكاء، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع البشرى الهائج والذي لا يُحصى عدده. سوف يرتعشون خوفاً أمام غضبنا... سوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال. ولكنهم، بإشارة منا، سوف ينتقلون بالسهولة نفسها إلى الفرح والمرح والغبطة، ضاحكين بهناءة، مغنين كالصبية الصغار. وسنجبرهم على العمل طبعاً، ولكننا سنهيئ لهم في ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب، فيها أغان وجوقات وحتى رقصات بريئة. أوه! وسنسمح لهم أيضاً بأن يأثموا ما داموا ضعافاً إلى هذا الحد من الضعف، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا. سنقول لهم إن كل خطيئة يمكن التكفير عنها إذا هي ارتكبت بموافقتنا. سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنا، لابأس... لسوف يحبوننا على أننا مخلّصون لهم، لأننا سوف نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب. ولن يكتموا عنا سراً. سنبيح لهم أو نحظر عليهم، تبعاً لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم أو خليلاتهم، وأن ينسلوا أو أن لا ينسلوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين. سيفضون إلينا بأخفى ما يضطرم في ضميرهم من أنواع العذاب. وسنفصل في جميع الحالات، وسيرتضون حلولنا سعداء، لأنها ستحررهم من القلق العظيم والعذاب الرهيب الذي يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قراراً ذاتياً حراً. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين سيقودونهم: سنكون وحدنا أشقياء، نحن الذين نملك السر. سيكون في هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء. لن يكون فيه إلا مائة ألف من الاشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشر. وسوف يموت أولئك موتاً

غامضاً ينطفئون باسمك وادعين مسالمين، فلا يجدون في الحياة الآخرة إلا العدم. ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت، ومن أجل سعادتهم سيتلألأ أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية. لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى. إن النبوءات تزعم أنك ستعود في يوم من الأيام لتحقق نصراً جديداً على الشر، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم. لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء إنما أنقذوا أنفسهم وحدها، أما نحن فقد جئتنا بالخلاص للناس كافة. يقال إن الزانية الدنيئة التي تركب «الوحش»[45] وتحمل بيديها كأس السر، سيجلّلها الخزي والعار ذات يوم وإن الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون الدين الكاذب رداءها الكاذب الفخم ويعرّون جسدها «النجس». ولكنني سأنهض عندئذ فأشير لك إلى تلك المليارات من الأطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة، ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم، سوف نمثل أمامك ونقول لك: «احكم علينا إذا كنت تستطيع، إذا كنت تجرؤ». ألا فاعلم أنني لا أخشاك. ألا فاعلم أنني عشت أنا أيضاً في الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات، وأنني باركت الحرية التي وهبتها للبشر. وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة، وأن أكون واحداً من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير، وكنت أحترق شوقاً إلى أن «أكمل عددهم». ولكنني رجعت إلى صوابي في الوقت المناسب، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة. لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضممت إلى صف أولئك الذين يعملون في إصلاح مأثرتك. تركت صفوف المتكبرين، وانضممت إلى الوديعين

لأعاون في تحقيق سعادتهم. إن ما أعلنه لك اليوم سيتحقق، وإن مملكتنا ستُبنى في هذا العالم. أعود فأكرر لك: إنك سترى غداً هذا القطيع الطيّع يسرع بإشارة مني إلى إضرام ألسنة اللّيب التي ستُحرق بها مزيداً من الإضرام بإضافة فحم متقد إلى النار. ذلك أنني سآمر بحرقك لأعاقبك على أنك جئت تعرقل عملنا. لئن وجد أحد يستحق أن يهلك في النار فهو أنت. غداً ستحرق. أنهي كلامي[46]».

صمت إيفان. كان قد تحمس أثناء الكلام، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامع حتى إذا فرغ من حديثه ظهرت على شفتيه ابتسامة على حين فجأة.

وقد أصغى إليه أليوشا صامتاً، ولكنه في أواخر الحديث حاول مراراً، وقد استبدّ به اضطراب داخلي عنيف، أن يقاطع أخاه. ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية. وها هوذا الآن يدع لنفسه أن تنفجر تعبيراً عن استيائه. صاح وهو يكاد يثب عن مقعده وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً:

- ولكن... هذا سخافة!... إن قصيدتك تمدح المسيح في الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو. من ذا الذي يقبل تأويلك هذا للحرية؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية؟ إن الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه... إنك تعرض تصوّر الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية، بل إن هذا التصور ليس تصوّر جميع الكاثوليكيين - ذلك خطأ! - وإنما هو تصوّر أشرارهم فحسب، هو تصوّر أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين!... ثم إن صاحبك المفتش الأكبر رجل لا صلة له بالواقع، وإنما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها. ما هي خطايا البشر التي يدّعي أنه أخذها

على عاتقه؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يُزْعَمُ أنهم ارتضوا لا أدري أي عذاب في سبيل سعادة الإنسانية؟ أين وُجد هؤلاء؟ إننا نعرف اليسوعيين. لقد قيل فيهم سوء كثير، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التي ترسمها لهم؟ إنهم ليسوا كذلك البتة... كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا في المستقبل ملكوت الأرض الشامل الآتي التي سيرأسها حبر روما برتبة إمبراطور... ذلك هو مثلهم الأعلى، وهو لا يشتمل على سر ولا على ذلك الحزن النبيل الذي لا يُفهم... إنه الظمأ إلى السيطرة والتسلط، إنه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة، إنه الرغبة في استعباد الناس... إنهم يحلمون بالعودة إلى نوع من نظام القنانة يكونون فيه هم المالكين والمنتفعين... ذلك هو طموحهم كله! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه إلا خيالاً محضاً...

قال إيفان ضاحكاً:

- لحظة، لحظة... لماذا تتحمس؟ ثمرة من ثمرات خيالي؟ لا أعارض في هذا، ذلك كله خيال طبعاً. ولكنني أرجو أن تسمح لي بإلقاء هذا السؤال: هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية في القرون الأخيرة لم تستلهم إلا الظمأ إلى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة؟ لا شك أن الأب بائيسى هو الذي قال لك هذا الكلام!

- بالعكس! إن الأب بائيسى قد قال لي في يوم من الأيام كلاماً يشبه كلامك تقريباً...

- كذلك قال أليوشا، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً:

- أعني... إنه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة...

قال إيفان:

- اسمع، اسمع. هذا اعتراف له شأنه رغم قولك «لا يشبه البتة»! كيف تستطيع أن تصدّق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشيء إلا لامتلاك الخيرات الماديّة الحقيرة؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم في يوم من الأيام ولو انسان واحد من من الصفوة المختارة يعذّبه ألم نبيل ويستبدّ به حبّ الإنسانية؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم، في عداد هؤلاء الطامعين الظامئين إلى المباهج الأرضية السافلة رجل واحد، رجل واحد شبيه بصاحبي المفتش الأكبر عاش في الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته في سبيل الوصول إلى الحرية وإلى الكمال. تخيل أن هذا الرجل قد أحبّ الإنسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفسية التي حريّة الروحي الإرادة إنما هي وهم باطل ما دامت حياة ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الهية مثله، ليست إلا سخرية لاذعة مرة، وأنهم لن يستطيعوا أبداً أن يتصرفوا بحريتهم، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا في يوم من الأيام عمالقة قادرين على إكمال بناء البرج... أي أنهم لن يصلوا في يوم من الأيام إلى حريتهم، وأن حلم الانسجام والتناسق الذي حلم به المثالي الكبير لم يخلق لهذا النوع من الأوز!... تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك، فعاد إلى صوابه، وانضم إلى الناس الأذكياء... أهذا في رأيك افتراض مستحيل؟

قال أليوشا فيما يشبه الحدة:

- إلى من انضم؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء؟ انهم لا ذكاء لهم البتة، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر! هؤلاء زنادقة... ذلك سرّهم كله! إن صاحبك المفتش لا يؤمن بالله... ذلك سرّه كله!

- لنسلم بهذا. لقد فهمت أخيراً. صحيح، أنه أصبح لا يؤمن

بالله، ذلك كل سرّه. لكن أليس هذا عذاباً بالنسبة إلى رجل مثله ضيّع حياته كلها في مأثرة الصحراء ثم لم يستطع أن يبرأ من حبه الإنسانية؟ لقد رأى في أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التي أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العصاة الضعاف، حياة هذه «المخلوقات الناقصة التي كانت للخالق تجربة، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة». فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذي نصح به الروح الذكي، الروح الرهيب، روح الموت والخراب. وإذا كان منطقياً مع نفسه، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم، بغية السير بهم إلى الموت وإلى العدم سيراً واعياً، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق، حتى لا يكتشفوا إلى أين يُسار بهم. فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء. لاحظ أنه يرى نفسه مضطراً إلى مقارنة هذا الكذب باسم ذلك الذي كان مثلاً أعلى له والذي آمن به إيماناً مشبوباً طوال حياته. أفليس هذا عذاباً؟ ألا إنه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف هذا الجيش «الظامئ إلى السيطرة وإلى اللذات المادية الدنيئة»، لكان في هذا ما تُخلق منه مأساة حقة! أكثر من ذلك، يكفي أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تنفخ فكرة موجّهة في فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها، فكرة عليا. أقول لك بصراحة: إنني على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا في جميع الأزمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية، وربما وجد منهم بين الباباوات أنفسهم! ومهما يكن من أمر، فإن ذلك العجوز اللعين الذي يصرّ

ذلك الإصرار كله على حب الإنسانية على طريقته يمكن أن يوجد في أيامنا هذه، مع عدد من أمثاله، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله نتيجة مصادفة، بل ثمرة تفاهم واتفاق، وأن يكون نوعاً من جميعة سرية أنشئت منذ زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء، وتأمين سعادتهم بذلك. لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً. هذا أمر لامناص منه ويبدو لي من جهة أخرى أن الماسونيين لابد أن يكون لهم هم أيضاً سرّ من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم[47]. ولعلّ هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيين من كره وبغض، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون إلى وحدة الفكرة، بينما يجب أن لا يكون هناك إلا قطيع واحد وراعٍ واحد... ولكنني ألاحظ أنني في دفاعي عن فكرتي أظهر بمظهرِ مؤلف عاجز عن احتمال نقدك. كفى هذا...

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله في تلك اللحظة:

- أتراك تنتمي إلى الماسونيين؟

ثم أضاف يقول:

- أنت لا تؤمن بالله.

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق في هذه المرة. حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح في وجهه السخر.

وسأله فجأة وهو خافض عينيه:

- كيف تنتهي قصيدتك؟ أهي تقف عند هذا الحد؟

- خطر ببالي أن أختمها على النحو التالي: صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه رداً. إن صمت السجين قد ثقل على نفسه. لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدّق اليه بنظرة رقيقة نافذة، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل في مناقشة معه. كان العجوز

يرغب في أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة. ولكن السجين لم ينطق بكلمة واحدة. وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتي من بلغ من عمره التسعين. كان ذلك كل جوابه. ارتعش العجوز، واختلج شيء ما في طرفي فمه. واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه: «اذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم أبداً، أبداً!» وأومأ له بيده إلى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة»[48]. وانصرف السجين.

- والعجوز؟

- حرقت القبلة قلبه، ولكنه لم يعدل عن فكرته.

- التي هي فكرتك أيضاً، أليس كذلك؟

بهذا صاح أليوشا يقول في مرارة. فأخذ إيفان يضحك. وقال:

- ما بك يا أليوشا؟ ما هذا كله بجد. هي قصيدة سخيفة ألّفها طالب بليد لم يكن في يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر. فلماذا توليها هذا الشأن كله؟ أتراك ستظن أنني ذاهب إلى الخارج لأنضم إلى هؤلاء اليسوعيين ولأنخرط في صفوف أولئك الذين يدّعون «إصلاح ما قام به المسيح»؟ فيم يعنيني هذا كله؟ لقد سبق أن قلت لك إن كل ما يعنيني هو أن أديم ابتهاجي إلى الثلاثين من العمر ثم أرمي الكأس!

هتف أليوشا يقول ممتلئاً مرارة:

- ووريقات الربيع الغضة، ماذا أنت صانع بها؟ والقبور العزيزة عليك، والسماء الزرقاء، والمرأة التي تحب؟ كيف ستعيش إذاً، وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب؟ إنك بهذه الأفكار الجهنّميّة في رأسك وفي قلبك لن تستطيع ذلك! بل بلى... إنك مسافر إلى الخارج لتنضم إليهم، وإلاّ فستقتل نفسك... إنك لن تصمد!

قال إيفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة:

- في نفسي قوة ستتيح لي أن أصمد لكل شيء!

- أي قوة؟

- قوة آل كارامازوف. . . قوة الحطة والخسّة في آل كارامازوف!

- ماذا إذاً، أتغرق في العهر والفجور، أتخنق الروح في حضيض الجسد؟ أهذا ما تفكر فيه؟

- ربما. . . ولكنني سأعرف كيف أتحاشى ذلك حتى الثلاثين من العمر. وبعدئذ. . .

- ستعرف كيف تتحاشى ذلك؟ كيف؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هي هذه الأفكار.

- بل سأعرف كيف سأتحاشاه، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضاً.

- أتعني القول بأن «كل شيء مباح». كل شيء مباح متى اتّفق مع المصلحة، أليس كذلك؟

قطب إيفان حاجبيه وشحب لونه شحوباً غريباً. وقال:

- آه! ألأنت تُلمح إلى الفكرة التي عبّرت عنها أمس عند شيخك، فكانت أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف. . . تلك الفكرة التي تلقفها دمتري فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة في السذاجة؟ (أضاف إيفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة متكلفة). . . ليكن! هو كذلك على وجه الإجمال! «كل شيء مباح»! قلت ذلك ولن أنقضه. أما صياغة ميتيا فليست رديئة هي الأخرى.

نظر إليه أليوشا صامتاً.

واستأنف إيفان كلامه يقول بانفعال مباغت:

- كنت أحدّث نفسي يا أخي بأنني سأحتفظ حين أسافر بإنسان

واحد يحبني على الأقل، ولكنني ألاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي المعتزل. أنا لن أنكر فكرتي القائلة بأن «كل شيء مباح»، ولكنك أنت ستنكرني بسبب هذه الفكرة، إذا صدق فهمي، أليس كذلك؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئاً.

هتف إيفان يقول في حماسة:

- هذا سطو أدبي! لقد سرقت الفكرة من قصيدتي! شكراً شكراً على كل حال. انهض يا أليوشا. آن أوان الانصراف، لي ولك على السواء.

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الحانة. قال إيفان بصوت جازم:

- اسمع يا أليوشا... إذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحبّ وريقات الربيع النضرة، فسيكون هذا بفضل ذكراك. سوف يكفيني في ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا في مكان ما حتى أسترد حب الحياة. هل يرضيك هذا؟ عُدّه تصريح حب إن شئت. والآن... إن طريقينا يفترقان. ستمضي أنت يمنة، وسأمضي أنا يسرة. كفى ثرثرات، هل فهمت؟ وحتى إذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد أنني سأسافر)، فالتقينا مرة أخرى، فلا تعد إلى هذه المسائل التي ناقشناها اليوم، أرجوك. حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع. ولا تكلمني أيضاً عن دمتري في المستقبل، إنني أطلب منك هذا جازماً قاطعاً. والأفضل أن لا تكلمني بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مباغتة). لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله، أليس هذا صحيحاً؟ وفي مقابل ذلك فإنني أقطع لك هذا

الوعد: حين سأقرر في الثلاثين من العمر أن «أرمي الكأس»، فسوف أجيء لأراك مرة أخرى أينما كنت... سآتي ولو من أمريكا... سأجيء إليك فنتناقش من جديد... في وسعك ان تعوّل على هذا. سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض. سيشوقني أن أراك عندئذ وأن أعرف ما الذي صرت اليه. ذلك عهد أقطعه على نفسي. وقد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنين أو عشر سنين. اذهب الآن. أسرع إلى صاحبك الأب سيرافيكوس[49]. لأنه يحتضر. فاذا مات في غيابك فقد تحقد عليّ لأنني أخّرتك. إلى اللقاء. قبلني أيضاً... هكذا... والآن اذهب...

تركه إيفان وسار في طريقه دون أن يلتفت. إن هذا الانصراف المباغت يذكّر بالطريقة التي تركه بها أخوه دمتري أمس، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف. مسّ هذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً، فشعر فجأة بحزن وإرهاق. لبث في مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذي كان يبتعد. لاحظ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك في تلك اللحظة، أن مشية إيفان كانت متمايلة بعض التمايل وأن كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف الأخرى. إنه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل. وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً. كان الظلام قد هبط. شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه. لقد نبت في نفسه إحساس لم يستطع أن يستبين طبيعته. هبّت الريح كما هبت في الليلة البارحة. وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المائة من أعمارها، غمرته بحفيف شجي حزين حين دخل غابة المنسك. كان يركض الأب سيرافيكوس. أين تراه وجد هذا الاسم؟ كذلك تساءل أليوشا - إيفان، أخي المسكين، متى عسى أراك؟... هذا هو

المنسك. آه... يا رب! نعم نعم، سوف ينقذني الأب سيرافيكوس سوف ينقذني منه إلى الأبد!

سوف يتساءل أليوشا مراراً أثناء حياته، في دهشة عميقة، كيف أمكنه في ذلك اليوم، بعد أن ترك أخاه إيفان. أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمتري، مع أنه كان قد عزم عزماً أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر، ولو اضطر في سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب إلى الدير في تلك الليلة.

؟